

المشاهد فلم يتيسر لي أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحاضرة الغربية الغربية.

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به الاجتماعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الأرض تجعل حدائق قد لا يختلف إليها إلا أفراد في حين يهتلك مئات الألوف من الخاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي أو يرثي لبكائهم وتسيل على النظر هذه التحف والعاديات التي لا تقدر بشئ وحكومة الجمهورية تفترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها. وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أئمة المفكرة تحرر في الأجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الأقل على تعديل هذا النظام الجائر الذي يسب من كثيرين السيد والبند ليعمر به قصر البلد وينعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد.

مكاتب باريز ومكتباتها

لو لم يكن في باريز إلا مكتبة الأمة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومنيونين ونصف صورة مخومة وألوفاً من الأيقونات والأنواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لأنظار أهل العالمين من العالمين.

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون ومنوك فرنسا وعناؤها وأشرفها يتبارون في أن يجعلوها في كل فرع من فروع العلم واللغات وصنوف المخطوطات والمطبوعات حتى إذا جاء

القرن العشرون أصبحت مكتبة الأمة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نواذر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف.

اختلفت إليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة. وبنفسي أن الكتب التي أهتمت إلى مكتبة الأمة في العهد الأخير لم ييسر إدخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الأمة الأميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فان ما رأيته منها مطبوعاً إلى عهد ليس بعيد وحده مكتبة برأسه ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الإجمالي.

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الأمة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتي إلا على قسم ضئيل جداً مما حوته في بطنها من معارف البشر ولا نعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الأستاذة التي تتجاوز الأربعين مكتبة ومكتبة المجلس البندي في الإسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الأدنى إذا جمعت كلها في صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة إلا جزءاً صغيراً من ذاك الجسم الكبير. وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين في مكتبة الأمة بالنسبة لأمثالهم في البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالاً ونساءً شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما الألف أحياناً وتجد فيهم الغرباء من أمم أوروبا وآسيا وأميركا وإفريقية ممن تجمع بينهم كنية العلم الجامعة وكلهم يتنافسون في البحث والدرس ويستخرجون من دكايز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويز محللة تقي البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يحظر ببال بعضهم أن هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيين فيها قوامهم وجمعوا لها من أقطر الأرض كل غال ونفيس عني عادة الإفرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم عني الاجتماع للانتفاع ولكن في باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضاً لكان منه مكتبة كسكنة الأمة بكثرة أسفارها إلا أن هذه تفوقها بالوادر من المخطوطات.

ولباريز عشر مكاتب أخرى في كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع عنك خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والجامع فإن لكل واحدة منها ما يقتضي لسطالع من أسفار المراجعة وغيرها. أما خزائن كتب الأفراد فهذه لا يحيط بها إلا علام الغيوب أو من يدعي أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب.

ويقول العارفون أن قواعد بلاد الإنكيز السكسونيين كآلمانيا وإنكترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيين واليطيان والاسبان وغيرهم إذ ثبت أن تلك الأمم العظى الراقية أكثر إحساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية عني أمنوب حديث لم يحظر ببال الفرنسيين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم عني تقاليد لهم قديمة وإن عرف عنهم أنهم أسبق الأمم إلى الجديد ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى.

والانتفاع من الكتب أيضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا أن نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الأمة في عاصمة الفرنسيين لو نقلت إلى ليسيك أو مونيخ أو برلين أو فينا أو أكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لاتفع

بها وتيسر سبيل الوصول إليها لأنها تكون هناك مفهومة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول حال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع. فإن كانت فرنسا في مقدمة شعوب الأرض من وجوه كثيرة ولا سيما في الأمور الذوقية وبدائع الصناعات والإصلاحات الدستورية والإنسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصري.

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فإننا نجد ألمانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسي فيما يدل على سلامة الذوق حتى أن ليبيك في ألمانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبة الألمان في نفس باريز تجدهم أمهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبة الباريزيين.

جاء في كتاب ألمانيا الحديثة أن ألمانيا أعظم البلاد إصداراً للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فأصدرت سنة ١٩٠٥ ٢٨٨٨٦ كتاباً في حين أن فرنسا التي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فإذا قدر أنه يطبع من كل كتاب في ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد واحد فصناعة الكتب في ألمانيا رابحة جداً. وقد كان عدد الخال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥ ٧١٥٢ محلاً تصدر إلى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك.

زرت في جملة الكتبة الذين زرهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والأدبية والتقويم السنوية

المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتيبة العالم إن لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون أن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الألمان أو الأميركيين لأدهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم. فكان دم الفرنسي الذي على زمناً قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدمش بحارته. ومن مكبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ومكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب إلى التجديد منها إلى الجود على القديم.

مجامع باريز العننية

٢٠

على الشاطيء الأيسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخيم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بحال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى. وأراد أن تنفق بعده في الخيرات وحسن الأثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بملكيون فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من أبناء الولايات الأربع التي أضفت إلى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه ورومينون.

وهذا القصر هو الذي نقل إليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيين وحق لهم أن يفاخروا به. وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمي الفرنسي المعروف بالأكاديمي أسسه